الفصل الثالث

في مزاعم المذهب التطوري والتاريخ الطبيعي في أصل الإنسان ومهده الأول

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

[الرعد: ١٦، ١٧]

المذهب التطوري في أصل الإنسان

لقد عاش العالم كله على المذهبين المذكورين آنفا قرونًا طويلة متعاقبة تتمسك كل أمة بما تشاء من المذهب الأسطوري أو المذهب الديني حتى ظهر منذ قرنين إلى يومنا هذا مذهب جديد في أصل الإنسان يقول: (إن الإنسان أصله قرد أو أخوه قرد تولدا من أب واحد مجهول) واستدل القائلون بهذا المذهب على قولهم بتشابه أسنانهما وبرأسهما ويديهما ورجليهما وبدمهما الذي لا يختلف في شيء من عناصر الدم.

ورأس القائلين بهذا هو الفيلسوف الفرنسي **لامارك** ثم جاء بعده الفيلسوف الإنكليزي **داروين** وعلى يده انتشر مذهب التطور.

ثم جاء العلماء الجيولوجيون الذين يحفرون الأرض ويكتشفون من طبقاتها الآثار والرواسب والفحوم والصخور[1] حين كانوا يبحثون عن آثار الأقدمين وما دخروه في الأرض من كنوز وجواهر كريمة من ذهب وفضة في الأطلال الخربة والحقول والبساتين.

صادفوا أثناء ذلك أدوات كان يستعملها الأقدمون من الأواني الخزفية والفؤوس والخناجر وبعض الأشجار وأوراقها وإلى جانبها جماجم أصحابها وقد غطتها الرمال والثلوج المتحجرة قد عثروا على هذه الآثار في مختلف الجهات في أفريقيا وآسيا وأوربا ونسبوا كل أثر إلى الجهة التي عثروه فيها أو إلى الشخص الذي عثر عليه وقدروا لهذه الآثار أعمارًا من

(١) الصخرة كل مادة تكون جزء من القشرة الأرضية سواء كانت صلبة أو رخوة.

السنين التي مرت عليها جاوزت بكثير تلك الأعمار التي قدّرها أهل التوراة لوجود الإنسان على الأرض حيث قدر أهل التوراة عمر الإنسان على الأرض من لدن آدم إلى السيد المسيح بنحو أربعة أو خمسة آلاف سنة فقط، ومن المسيح إلى يومنا هذا ألفا سنة فقط فيصير عمر الإنسان حتى اليوم ستة آلاف أو سبعة آلاف سنة.

أما أهل القرآن فلم يجدوا فيه نصّاً بتقدير عمر الإنسان على الأرض بل قال: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [الكهف: ٥١].

تقدير أعمار المكتشفات ظني لا قطعي

يقول العالم الإنكليزي وليام لانجر في موسوعته التاريخية للعالم:

(إن عدم وجود وثيقة لتاريخ ما قبل التاريخ جعل العلماء يطلبون الوسائل لتعيين زمن ما عثروا عليه من بقايا الإنسان ومدة حياته واستخدم العلماء عدة طرق لمعرفة ذلك ولكن في هذه الطرق مجال واسع للخطأ.

لذلك يقع الاختلاف بينهم في تقدير الأعمار ولا يوجد حتى الآن مقياساً حقيقيّاً لذلك.

مثال ذلك أن أزمنة الحضارات التي ذكرت لعصور ما قبل التاريخ تختلف كثيراً في مختلف جهات العالم، فحين يكون بلد في العصر الحجري يكون بلد آخر مثله في العصر الحديدي)[1].

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ص (٦).

ويقول الأستاذ أحمد زكي بدوي في كتابه فجر التاريخ :

(كان تاريخ الإنسان الأول غامضًا لأننا لم نعرف متى وأين وجد .

فالبعض يقول إن ذلك حدث منذ ثلاثمائة ألف عام .

ويزعم البعض أنه وجد منذ مليون سنة . واختلفوا في مهد الإنسان الأول فريق يقول إن أواسط آسيا هي مهد الإنسان الأول ، بينما يجزم آخرون بأن أفريقيا هي وطنه الأول .

ولكن الأبحاث الأخيرة لعلوم الحفريات والتشريح المقارن ألقت بضوءها على هذا الظلام ويمكننا الآن تحديد زمن انفصال الإنسان عن القرد بنحو ٥٠٠ ألف سنة وأن أقدم آثار الإنسان ترجع إلى مدة لا تزيد على ١٠٠ ألف سنة) .

ويقول الأستاذ شكيب أرسلان في تعليقه على تاريخ ابن خلدون ص(٣٢) جزء ثان (إن الذين جزموا بقدم عهد الإنسان بناء على ما اكتشفوه في باطن الأرض وما نقبوا عنه في الكهوف والغيران وما عثروا عليه عرضًا واتفاقًا في قيعان البحيرات لا يزالون يقرون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال ، وأنه لا يصح الجزم إلا بالنظرة الإجمالية التي معناها كون الإنسان موجودًا لا من خمسة آلاف سنة ولا سبعة آلاف سنة بل من أضعاف هذه السنين) اهـ .

تقسيمات السلائل البشرية بحسب البقايا المكتشفة

نورد ها هنا كلام العلامة أمير البيان شكيب أرسلان عند تعليقه على تاريخ ابن خلدون ص(٤٥) جزء ثان :

(لقد عدل المؤرخون اليوم عن القول بأن سام وحام ويافث هم آباء البشر الحقيقيين وإذا ذكروها فإنما يذكرونها وفقًا للتوراة وللتقاليد القديمة.

إن أهل التوراة يعتقدون أن العالم والإنسان الأول وجد قبل المسيح بأربعة آلاف سنة أما القرآن فلم يحدد السنين لعمر الإنسان بل قال:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ وهو أصح الأقوال) اهـ.

(قلت) وإذا كانت التوراة قد ذكرت ساما وحاما ويافثا كآباء البشر بعد الطوفان فإن القرآن ذكر الطوفان ونجاة نوح وقومه معه في الفلك ولم يذكر أسماء أولاد نوح الثلاثة ولم يحدد السنين من آدم إلى نوح وإبراهيم ويوسف والأسباط وموسى وعيسى.

أما أهل التطور فقد زعموا أن الإنسان قد نشأ من النبات ثم ارتقى إلى الحيوانات الثديية ثم ارتقى إلى أنواع القرود الأربعة نسناس وغورلا وشنمبانزي وأورنغ تنغ ثم جيبون وأخيرًا الإنسان.

فقد أتوا بتقسيمات أخرى وقالوا: إنه قد مضت على وجود الإنسان على الأرض مئات الألوف من السنين، وإن سلالات البشر تعود إلى التقسيمات الآتية:

سلالة العصر الحجري حيث كان الإنسان يصنع أدواته من الحجر قبل أن يهتدي إلى المعادن.

سلالة العصر البرونزي حيث اهتدى إلى النحاس أو البرونز وصنع منه أدواته .

وسلالة العصر الحديدي حيث اهتدى إلى صناعة الحديد فصنع أدواته منه .

ويمضي شكيب أرسلان يقول في المصدر السالف الذكر :

ومما لا يجوز أن ننساه كون هذه التقاسيم كلها مبنية على الرمم التي وجدت في أوربا فقط دون سائر القارات .

ولكنهم حكموا أن النشوء والارتقاء حصل من القارات جميعًا كما حصل في أوربا على وتيرة واحدة وهذا قبل الحرب العالمية الأولى .

ويقول الأستاذ أحمد زكي بدوي :

إن أهل الحفريات الذين عثروا على آثار الإنسان ليسوا في مكان واحد وإنما عثر كل فريق على نصيبه في مكان ونسب ذلك الأثر إلى ذلك المكان .

أوله: إنسان جاوه عثروا عليه في جزيرة جاوه ولم يتم الاتفاق على زمنه وأقل تقديراتهم له أربعمائة ألف سنة .

ثانيه: إنسان هيدلبرغ في ألمانيا زعموا أنه عاش منذ ثلاثمائة ألف سنة .

ثالثه: إنسان بلتدون في إنكلترا الذي يرجع زعمهم به إلى مائة ألف سنة .

ورابعه: إنسان انيادرتال بألمانيا أيضًا ظنوا أنه عاش منذ خمسين ألف سنة .

وخامسه: إنسان روديسيا بأفريقيا ولم يتحدد زمنه بالدقة الثابتة .

ومن باب الإحاطة بالعلم بالشيء ولا الجهل به ما ذكره علماء التاريخ المسلمين من عمر الدنيا نخص بالذكر منهم ابن الوردي في خريدة العجائب ص(٢٥٠).

(أنه جاء في بعض الأخبار أن كل شيء خلقه الله من الخلق كان قبل آدم وأن آدم وجد بعد إيجاد الخلق لأنه خلق آدم آخر الأيام التي خلق فيها الخلق وأنه كان قبل آدم ألف آدم ومائتا آدم ونوح آخر الآدميين).

وحكى عن البلخي أن عالمًا من علماء المجوس قال في كتاب لهم (الهند سند).

(إن مدة الدنيا أربعة أرباع أولها بعدد أيام السنة ثم بعدد أيام شهور السنة ثم بعدد الأسبوع.

فالربع الأول ثلاثمائة ألف وستون ألفا سنة فقد مضت.

والربع الثاني ثلاثون ألف سنة عدد أيام الشهر وقد مضت أيضًا.

والربع الثالث اثنا عشر ألف سنة عدد شهور السنة وقد مضت.

والربع الرابع سبعة آلاف سنة عدد أيام الأسبوع ونحن فيها اليوم).

ثم نسب إلى النبي خبرا يقول: أخبرني ربي أنه خلق الدنيا منذ سبعمائة ألف سنة إلى اليوم الذي بعثت فيه رسولاً إلى الناس والله أعلم.

أمثلة من طرق تقدير أعمار البقايا البشرية

يقول وليام لانجر في موسوعة تاريخ العالم:

(إن العلماء في تقدير أعمار البقايا لهم طرق عديدة:

١- منها تقدير عمر البقايا بمعرفة تاريخ أمثالها في الجهات الأخرى عن طريق جيولوجيا.

٢- منها تقدير عمر البقايا بمعرفة الطبقة الجيولوجية الموجودة فيها البقايا من الرواسب المتحجرة عن طريق الإشعاع.

٣- منها تقدير الزمن الكافي للعمل الجيولوجي ومثلا إذا حسبنا أن النهر يحفر مجراه على الأرض أو على الصخر في زمن أقله مائة ألف سنة، استطعنا أن نقدر عمر المجرى بتقدير هذه السنين.

وإذا قررنا أن انهيار المعادن المشعة على صخور وجدنا أن المدةلا تقل عن نصف مليون سنة قدرنا عمر ذلك الصخر بذلك) اهـ.

أما طريقة العناصر المشعة حسب ما اكتشفته مدام كوري ١٨٩٨م يقول الأستاذ عبد اللطيف أبو الوفا في كتابه «الفلك الحديث»:

(إن العناصر المشعة هي الراديوم والأورانيوم والثوريوم والهيليوم، وإن هذه العناصر المشعة في ذاتها تطلق ذرات مادية من جواهرها الفردة فتحول عناصر أخرى ويحتاج التحول إلى زمن معين. فمثلاً إن الأورانيوم أم الراديوم وتحتاج الولادة إلى زمن معين لأنه إذا أطلق الأورانيوم جواهرها

الفردة من ذاتها تطلق ثلاث ذرات من الهيليوم ثم يطلق عليها ذرات أخرى من كهارب صار الراديوم ثم يتغير الراديوم ويطلق غازًا من الهيليوم فيصبح رصاصًا).

ويكمل الأستاذ فؤاد صرف بقية العملية في كتابه علم جيولوجيا ص(١٢٠) يقول: إذا أخذنا غراما من الراديوم الصافي تحول نصفه في (١٦٠٠) سنة إلى نفاية الراديوم (ذرات كهارب أخرى) وبعد (١٦٠٠) سنة أخرى تحول نصف الراديوم الباقي إلى نفايته أي بعد (٣٢٠٠) سنة يصبح غرام الراديوم ربع الراديوم الصَّافي وثلاثة أرباع نفاية الراديوم وإذا أعطينا صخرا فيه قدر من الراديوم الصافي ونفايته أمكنا أن نعين الزمن الذي انقضى على الصخر حتى أصبحت الراديوم إلى نفايته) وهكذا سائر العناصر المشعة وشرح الأستاذ عباس محمود العقاد طريقة أخرى لقياس أعمار الآثار نقلاً عن مكتشف هذا المقياس الذي هو العالم الأمريكي ويلادليبي.

(إن نصف ذرات كربون (١٤) تتخلل في الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة، ويعمل فيها حساب فرق التقدير بنحو ثلاثين سنة إلى الزيادة والنقصان فإذا جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجري فمن الممكن وزن ما فيها من كربون (١٤) وتقدير الزمن الذي انقضت فيه حياة الكائن الحي الذي تخلفت منه تلك البقايا على حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون.

فإذا كان هذا المقدار نصفًا فقد مات ذلك الكائن الحي قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة، وإذا كان المقدار ربعًا فقد مات قبل نحو أحد

عشر ألفاً ومائة وست وثلاثين ويزيد عدد القرون كلما نقصت نسبة البقية من الكربون(١٤) بالمقابلة بينه وبين الكربون (١٢) اهـ.[١]

أقول: بمثل هذه الطريقة يقدرون أعمار ما وجدوه من آثار تحت الأرض أو فوق الأرض ولكن الأستاذ بعد استيعابه وإحاطته بجميع هذه الطرق رجع وقرر ما يأتي وقال: (ولكن الإنسان القديم الذي دلت عليه البقايا في مختلف الأماكن بما كان يستخدم من أدوات حجرية ونحاسية ليسوا من نوع الإنسان الحالي الذي بدأ منذ عشرة آلاف سنة، إن الإنسان الحالي الذي أصله آدم وحواء والذي عرف الشريعة وسخر الحيوان وسخر العناصر الطبيعية ليس من ذلك الإنسان القديم).

الجمع بين رأي التطور ونص القرآن

إن الأستاذ أرسلان قد علق الحكم النهائي في تقدير الأعمار على مزيد من البحث والكشف عن حقيقة تطور الإنسان من الإنسان القديم إلى الإنسان الحالي دون القول بتحول القرد إلى الإنسان.

وكذلك يقول الأستاذ العقاد: ليس في القرآن ما ينفي تطور الإنسان من شكل إلى شكل أو من صورة إلى صورة.

وإنما ثبت أن الله تعالى خلق الإنسان من طين، وفي آية أخرى ومن سلالة من ماء مهين، قال العقاد: (إن خلق الإنسان من الطين لا ينفي التحول إلى غير الطين ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب) واستطرد يقول:

---

(١) الإنسان في القرآن للعقاد ص (٦٥).

بل في القرآن نص يدل على التطور في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] راجع الإنسان في القرآن(١٧٦).

قلت: إن هذا الكلام يعيد قول العقاد إن الإنسان الحضاري الذي أوله آدم قد علمه الله بوحي فلا مدخل بعد ذلك لنظريات التطور في علم الإنسان الأول.

الأستاذ النجار وآدم قبل آدمنا هذا

يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء:

(إن العقل لا يجعل من المحال أن يكون الله خلق آدم غير آدم هذا، وقال كما قال المعري:

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على أثر آدم

ثم قال النجار: هناك فريق من الناس من يرجح أن آدمنا هذا ليس أول نوعه لذلك تقول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

إن الملائكة لم يقولوا ذلك إلا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذلك.

وإن آدم إنما كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا).

ويعززون أقوالهم بما يراه علماء الجيولوجيا من بقايا عظام بشرية تخالف

عظام الآدميين الموجودين الآن، ويرجع تاريخ وجودها إلى أزمان كثيرة تعد بعشرات الألوف ومئات الألوف من السنين[1].

ولقد أسلفنا الكلام فيما أورده ابن الوردي في خريدة العجائب من طريقة تقدير عمر الإنسان في الصفحة (٢٤) من هذا الكتاب.

وربما قال قائل إن ما ذكره الوردي طريقة وهمية ليست مبنية على أساس علمي متين فنرد عليه بأن جميع الطرق المنسوبة إلى القواعد العلمية لا تزال ظنية لذلك تعددت هذه الطرق واختلفت النتائج المحصلة من هذه الطرق كما قرره العلماء الطبيعيون أنفسهم.

---

(١) قصص الأنبياء ص (١٢).